شهداء العلم (١)

للحروب ابطال وللقتال اقيال وللدين شهداء كذلك للعلم ابطال وشهداء . ففي كل عصر من العصور اضطهد كثيرون من العلماء والباحثين والمخترعين والمكتشفين وسجنوا واذيقوا العذاب الوانا وقتلوا في سبيل العلم فراحوا ضحايا الانسانية

وقد عد العلماء ارخميدس اليوناني العقلي العالم الرياضي الطبيعي الشهير مكتشف مبدإ الثقل النوعي المعروف باسمه والطنبور اللولبي لرفع الماء والعجلات المسننة وبكرات رفع الاثقال والمرايا المحرقة اول شهيد في العلم فانهُ قتل في حصار سيراقوزا بينما كان يحل بعض المسائل العلمية الرياضية وكان القائد مارسيلوس الروماني قد اوصى جنودهُ عند دخولهم الى المدينة ان يصونوا حياة هذا العالم الشهير الاَّ ان احد الجنود قتلهُ وهو لا يعرفهُ وكان ذلك سنة ٢٨٧ قبل التاريخ المسيحي

وبين شهداء العلم الاقدمين بلينيوس الكبير المؤرخ والعالم الطبيعي الروماني فانهُ ذهب مع صحب لهُ ليبحث بحثاً علمياً عن بركان ازوف عند هيجانهِ فصعد الى فوهة الجبل مع رفاقهِ وكان البركان في شدة هيجانهِ سنة ٧٩ للمسيح يتدفق من فوهتهِ النارية البراكين والحمم ولما وصل الى قمتهِ اختنق بعضهم من الدخان الكثيف واحترق آخرون بنار الحمم ففر الباقون ونزلوا من الجبل الاَّ ان بلينيوس ظل وحدهُ يدنو من فوهة البركان ليشاهد سعتها ويتحقق حمتها عن كثب فاكتنفتهُ سحابة نارية ومات حرقاً

ولقد يضيق بنا المقام لو عددنا كل العلماء والمكتشفين والفلاسفة الاقدمين الذين ماتوا في سبيل العلم . فقد ذكر المؤرخون ان احد رواد البلاد على عهد كليوبطرة ملكة مصر اقلع بسفينتهِ سنة ٥٦ ق . م . في بحر القلزم (الاحمر) فاجتاز باب المندب محاذياً شواطىء افريقية الشرقية واكتشف بلاد الصومال والحبشة وزنجبار حتى وصل الى مدينة مدشكر ثم رجع الى الاسكندرية ووصف احوال تلك البلاد واهلها وحمل معهُ اشياء كثيرة من حاصلاتها ونباتاتها

(١) مقالة للمرحوم ديمتري نقولا عثرنا عليها بين اوراق كانت عندنا

ومصنوعاتها ومعادنها. فلما علمت كليوبطرة بامره استدعته اليها فقص عليها اخبار رحلاته ووصف لها ما رآه في تلك البلاد البعيدة المجهولة وقتئذٍ من الغرائب واراها ما اتى به منها فدهشت كثيراً وامرت ان تبنى له سفينة كبيرة وزودته بمال ورجال وعهدت اليه ان يرجع ثانية الى تلك البلاد ويكتب رحلاته في الحجار يصف بها مواقعها وتخطيطها ويأتيها بما يجمعه من مصنوعاتها ومعادنها وحيواناتها من الذهب واللؤلؤ والمرجان والعنبر والكافور والاخشاب وجوز الهند والاورد والببغاء والزرائف. فذهب وظل ثلاث سنين في رحلته هذه ولما رجع الى مصر حمل معه شيئاً كثيراً من كنوز تلك البلاد. وكانت كليوبطرة قد ماتت في اثناء سياحته ولما عرض امره على الحاكم الروماني الذي خلفها في الحكم من قبل قياصرة رومية قبض عليه واخذ ما معه ووضعه في السجن حيث مات بعد بضع سنين بعد ان خاطر بنفسه في البحار في سبيل الاكتشاف

واما في العصور الوسطى فكثيرون من العلماء والمخترعين والمكتشفين ضحوا نفوسهم في سبيل العلم او ماتوا تعساء مضطهدين. ولا يجهل احد ما عاناه كرستوفورس كولمبس الجنوي من المخاطر والاهوال في اكتشاف اميركا القارة الجديدة فكانت آخرته ان تنوسي امره ونال غيره فخر الاكتشاف ومات فقيراً مهاناً سنة ١٥٠٥ وقال المؤرخون انه مات وهو لا يملك ما يسد به جوعه. وكذلك غوتنبرج الالماني مخترع الطبع فبعد ان قضى حياته وانفق ماله في سبيل هذا الاختراع الثمين اضطهد وسرق منه اكتشافه ونال غيره فخره ثم مات في التعاسة والفقر سنة ١٤٦٨

واما أتيين دوله الفيلسوف العالم احد اعاظم علماء فرنسا في القرون المتوسطة ومؤسس المطابع فيها فقد حكم عليه بالموت لان آراءه العلمية كانت مخالفة لآراء رجال الدين فاحرق حياً في ساحة باريس سنة ١٥٤٦. وكذلك ميشيل سرفه الطبيب العالم اللاهوتي الاسباني حكم عليه ديوان التفتيش بالموت لانه كان ميالاً الى الاصلاح الديني فاحرق حياً في جنوى سنة ١٥٥٣ واكبر شهداء العلم غليليو العالم الطبيعي الرياضي الفلكي الايطالي مخترع الباروميتر. واشهر اكتشافاته العلمية التي اضطهد لاجلها هو قوله بحركة الارض ودورانها حول الشمس وثبوت الشمس

فقامت المجامع المدرسية ضده وقاومهُ رجال الدين واضطهدوهُ وعدوهُ مخالفاً هرطوقياً فقبضوا عليهِ وخيروهُ اما ان يموت حرقاً بالنار او ان يجحد آراءهُ العلمية فاضطر ان ينكرها ويجحدها امام الشعب الروماني وهو راكع ثم احرقت كتبهُ علناً . وقضى غليليو ثلاثين سنة في الشقاء والاضطهاد والعذاب والفقر ومات في السجن وهو فاقد البصر في الثامنة والسبعين من عمرهِ سنة ١٦٤٢

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بطلت الاضطهادات الدينية والعلمية على عهد الاصلاح والحرية الاَّ انهُ وجد كثيرون من العلماء والاطباء والمكتشفين والمخترعين تحملوا اضطهادات ومقاومات كثيرة من زملائهم او من اهل وطنهم حسداً وغيرة فلا بدع اذا حسبوا بين شهداء العلم كما حدث لسلوس المجري احد اطباء النمسا في اواخر القرن الثامن عشر فهذا الطبيب قال ان حمى النفاس من الامراض العفنة الناتجة من مواد سامة في الدم الاَّ انهُ يمكن تجنبها بواسطة استعمال النظافة والتطهير وبتنقية الدم فقامت قيامة الاطباء المعاصرين عليهِ وخصوصاً استاذهُ الدكتور كلين رئيس الجامعة الطبية في فينا واستنكروا كلهم ان شاباً حديث العهد في الطب ينهض ويكتشف شيئاً لم يعرفوهُ فاضطهدوهُ حتى اضطر ان يغادر فينا ويذهب الى براغ وهناك اوصلوا الاذى اليهِ ايضاً واخيراً ذهب الى بودابست مسقط رأسهِ فعينهُ اهلها مديراً لجامعتها الطبية ولما اعلن آراءهُ ان للحميات جراثيم خاصة بها قاوموهُ وسفهوا رأيهُ وعزلوهُ ومات هذا الشهيد في الخمسين من عمرهِ بعد ان قضى عشر سنوات في مستشفى المجانين

والآن بعد مائة سنة من موتهِ صدقت نظرياتهُ العلمية وآراؤهُ الطبية واثبت اطباء العالم وفي مقدمتهم اشهر المكتشفين والمخترعين كباستور وكوخ وورو وغيرهم ان لكل مرض من الامراض المعدية العفنة الوبائية مكروباً خاصاً بهِ

ومنذ ستين سنة تقدمت العلوم الجغرافية والاثرية والطبية والجراحية والكيماوية والطبيعية وكثرت الاختراعات التجارية والكهربائية والميكانيكية كالتلغراف السلكي واللاسلكي والتلفون واشعة رنتجن والراديوم والطيران واكتشف السياح البلاد السحيقة والصحاري الواسعة والمجاهل الافريقية والجزائر القاصية وعرف القطبان الشمالي والجنوبي الاَّ ان ذلك لم يتم الاَّ بعد ان ضحى

الوف من هؤلاء العلماء والمخترعين وانسياح حياتهم في هذا السبيل فكم من شهداء من الاطباء والكيماويين قتلوا وهم يبحثون عن مكروبات الامراض القتالة الوبائية وكم من الجراحين قتلوا وهم يشرحون الجثث او يعالجون جرحاهم وكم للفنون الكهربائية والميكانيكية من شهداء وكم قد قتل في السنين الاخيرة من الذين تعاطوا الاتقان فن الطيران وكم قد مات وقتل من السياح والرواد في مجاهل افريقيا وغيرها كجلان الذين قتلوا في جزائر الهند عند ما اكتشف المضيق المعروف باسمه في القرون الوسطى ولتستون وبرازا وغيرهما ممن قتلوا او ماتوا في صحاري افريقيا وسكوت وكوك وغيرهما من شهداء التطبين فكان الجليد لحدهم . وبالاجمال فلكل علم وفن واكتشاف شهداء وابطال

ولكن شهداء الطب اكثر من غيرهم لانهم يتعرضون على الدوام لاخطار العدوى من الامراض الوبائية واكتشاف مكروباتها القتالة فكم شهيد منهم ذهب ضحية الواجب في خدمة الانسانية. ففي سجلات تاريخ الاطباء كثيرون من شهداء العلم وخصوصاً في السنين المتأخرة فالدكتور هولمان الروسي من جامعة بتروغراد الطبية قتل من مكروب الطاعون وهو يكتشف الدواء الواقي لهذا المرض المستخرج من المكروبات نفسها فصيب بخدش في اصبعه ومات بعد ان قضى اربعين ساعة في عذاب أليم وحدث ايضاً مثل هذا الحادث لاحد اطباء جامعة فينا سنة ١٨٩٨ بينما كان يحقن بعض الحيوانات المصابة بالطاعون . وفي تلك السنة قتل الدكتور كامارا بستانا البرتوغالي بينما كان يشرح امرأة مصابة بالطاعون الرئوي وكذلك قتل الدكتور ساكس من جامعة كوخ في برلين بينما كان يستخرج مكروبات الكوليرا

وفي سنة ١٨٩٧ ارسل معمل باستور الشهير بعثة من الاطباء الى مصر لدرس مكروبات الكوليرا الاسيوية فاصيب بها احدهم وهو الدكتور توليرا اصابة شديدة فقضى ساعات كثيرة في العذاب والآلام ومات في الاسكندرية

ويطول بنا الشرح لو ذكرنا اسماء كل العلماء والمكتشفين والمخترعين الذين قتلوا ضحية العلم في خدمة الانسانية فنكتفي بما تقدم

دعتري نقولا